الرُّؤْيَةُ القُرْآنِيَّةُ لِمَقَامَاتِ النَّبِيِّ الخَاتِمْ

(دراسة تفسيرية)

م.د. محمد كاظم حسين الفتلاوي

كلية التربية - جامعة الكوفة

فحوى البحث

من المعلوم ان المقامات النبوية لا تمثلها أوراق محدودة، ولا يعرف كنهها لسمو صاحبها الذي شرفه الله سبحانه بالنبوة الخاتمة، فالنبي محمدﷺ هو الحقيقة الكبرى، ومقاماته كبيرة وعظيمة، منسجمة مع ما وهب الله سبحانه له من المقام المحمود، ولتجلي هذه المقامات المائزه له كان هذا البحث، وكذلك للوقوف على عظمة نبينا الأكرمﷺ واستلهام الدروس التربوية السامية، ومما ينتفع منها في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، ونظراً لما في الروايات من أخذ ورد فقد اختصر بيان الحقيقة المحمدية في القرآن الكريم، فعكف الباحث على إجلاء هذا الفهم لآيات القرآن الكريم مستعيناً بالمفسرين في كشف المراد وتقيداً بعنوان البحث دون غيره من موارد تلك المقامات، فكان البحث من مقدمة ومطلبين.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين...

أما بعد... إن من سُنة الله سبحانه في خلقه، أن فاضل بين المخلوقات كلها، ففضل المؤمنين من بني الانسان على غيرهم، ثم فاضل بين المؤمنين من الآدميين على جميع مخلوقاته، وفاضل سبحانه بين المؤمنين، ففضل الأنبياء على سائر المؤمنين، وفاضل بين الأنبياء ففضل محمداًﷺ عليهم.

والبحث في خصائص النبي محمدﷺ القرآنية مما يتشرف المرء في تناولها، إذ يقف على عظمة النبوة المتجلية فيهﷺ، مما يتبين من الرؤى الحقيقية للخصائص المحمدية، ومما ينتفع منها في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، فالإصلاح الكبير الذي حققهﷺ في جزيرة العرب في سنين قلائل والذي لا يمكن تحقيقه إلا خلال آماد طويلة وعقب تطورات متوالية، من البراهين القوية الدالة على عظمة خصائص النبوة المحمدية، وعلى أنه أعظم الناس طراً، بل أعظم عظماء التاريخ ومن ابرز عظماء التاريخ هم الأنبياء قاطبة.

وكذلك ما لحظناه من عدم إفراد المقامات النبوية القرآنية ببحث مستقل يستقصي معطياتها التفسيرية. مع تضخم واسع في كتب المقامات والخصائص والمعجزات -وهذا ما أكده أيضاً الباحث صالح أحمد الشامي-وذلك عائد إلى (تساهل معظم كتّاب السيرة في قبول الأحاديث الضعيفة بل والضعيفة جداً، بل وأعلنوا ذلك صراحة..)[1]، من هنا كان أيضاً سبب اختيار البحث وعنوانه الذي اختصر خصائصهﷺ في القرآن الكريم دراسة تفسيرية والمائزة عن الناس عموماً في مطلبه الأول، وخصائصه المائزة عن سائر الأنبياء والرسل في المطلب الثاني.

أما أهمية البحث ففضل الحبيب محمدﷺ في آيات الذكر الحكيم كالشمس في رابعة النهار، إلا إن في هذه الآيات رؤى للمفسرين في فهم معناها،

(١) من معين الخصائص المحمدية، المكتب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م، ص١٤.

ومن ثم أخذت هذه الآيات فهماً آخراً على حساب المقامات المحمدية، مستعيناً بما ينسجم مع معطيات البحث في المُدَوَّنة التفسيرية وقوفاً على ماتم إظهاره فيها من عناية بهذه المقامات واستقصائها.

أما الدراسات السابقة فهي كثيرة مما يصعب إحصائها، إلا إن الذي قد تيسر للباحث الاطلاع عليها قبل شروعه في بحثه دفعه إلى الولوج في مضامين البحث، ومن هذه المصادر كان على سبيل المثال: السيوطي/ كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب[٢]، أبو حفص عمر بن علي الأنصاري الشهير بابن الملقن/ غاية السُّول في خصائص الرسولﷺ[٣]، وعلي الافتخاري/ خصائص النبي في القرآن[٤]، وسعيد حوى، محمد الخصائص والشمائل والمعجزات[٥]، والسيد رضا الصدر/ محمد في القرآن[٦]، السيد محمد باقر الحكيم/ الرسول الأعظم[٧]، الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)/ مع المصطفىﷺ[٨]، ورسول جعفريان/ محمدﷺ جامع المحامد كلها[٩]، وغيرها من المصادر القديمة أيضاً، وكذلك لما لاحظه الباحث فيها من الابتعاد عن المنهجية الأكاديمية، وكذلك لم يلحظ الباحث دراسة تفسيرية خاصة بمقامات النبي الخاتمﷺ التي اطر الباحث فيها بحثه هذا.

خطة البحث: احتوى بحث (الرؤية القرآنية لمقامات النبي الخاتمﷺ -دراسة تفسيرية -) على مطلبين، المطلب الأول كان عنوانه المقامات المائزة عن سائر البشر، وكانت محاوره هي: مقامهﷺ

(٢) دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م.
(٣) تحقيق: عبد الله بحر الدين عبد الله، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٩٩٣م.
(٤) مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم، ٢٠٠٣م.
(٥) دار السلام، بيروت، ٢٠٠٩م.
(٦) مركز النشر التابع لكتب الإعلام الإسلامي، قم، ط٢، ١٤٢٠هـ.
(٧) مؤسسة شهيد المحراب للتبليغ الإسلامي، النجف الأشرف، ١٤٢٤هـ.
(٨) دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.
(٩) نقله إلى العربية: د. علي هاشم الاسدي، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد المقدسة، ط٣، ١٤٢٨هـ.

على الخلق بالرأفة، مقامهﷺ بأنه رحمة للعالمين. والمطلب الثاني فقد كان عنوانه المقامات المائزة لـهﷺ على الأنبياء والمرسلين، وكانت محاوره هي: مقامهﷺ على الأنبياء والمرسلين بختم الرسالة، مقامهﷺ عليهم بعموم الرسالة، مقامهﷺ بكثرة المعجزات ودوامها، مقامهﷺ بخصال لم تعط لنبي قبله، ثم عقب هذين المطلبين بخاتمة وقائمة لمصادر ومراجع البحث، وعلى النحو الآتي:

المطلب الأول:

المقامات المائزة عن سائر البشر.

تميز الحبيب محمّدﷺ عن سائر البشر بقامات كثيرة نلتمسها في نصوص القرآن المجيد، سيحاول الباحث بيانها بقدر مستطاعه، وعلى النحو الآتي:

أولاً: مقامهﷺ على الخلق بالرأفة:

امتياز النبي محمدﷺ على سائر الخلق بأنه ذو (رأفة)[10] ورحمة بالناس أجمعين، مع أنه من جنسهم إلا إنه أشد رأفة منهم، فالنبيﷺ إنسان في (مشاعره الحلوة الرقيقة التي تنساب بالحنان والعاطفة على الناس من حوله فيضمّ المؤمنين إليه في حرصٍ كبيرٍ وخوف شديد من ان يمسهم سّوء، أو عرض لهم مكروه)[11]، وهذه النفس الرؤوفة نلتمس تميزها عن سائر الناس في وصف القرآن المجيد لهذه الخصيصة المحمدية (الرأفة) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[سورة التوبة: ١٢٨].

فنجد في هذه الآية الكريمة إن (من أوصافه يشق عليه ضركم أو هلاككم وأنه حريص عليكم جميعاً من مؤمن أو غير مؤمن، أنه رؤوف رحيم بالمؤمنين منكم خاصة)[12]. وذلك لميزة الإيمان التي فيها رضا الله سبحانه وتعالى، بالناس عامة رجاء الأيمان منهم، ومن

(١٠) جمع رُؤَفاءُ: صفة مشبَّهة تدلّ على الثبوت من رؤُفَ بـ: عطوف حنون .

(١١) محمد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن، ١١/ ٢٥٢.

(١٢) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٩/ ٣٦٣.

ثم تحققت نجاتهم من الهلاك الدنيوي والعذاب الآخروي.

إذن مقامه بالرأفة واضح في دلالة الآية الكريمة، وكذلك عموميتها في كونه رؤوف بالناس عامة، وبهذا لا يتفق الباحث مع من ذهب مِن المفسرين بأن هذه الخصيصة (الرأفة) خاصة بقوم النبيﷺ وعشيرته، بعد إن فسر قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، بأنهﷺ من العرب خاصته، ومن ثم يترتب عليه أن تكون الرأفة خاصة بالعرب دون غيرهم، فكان إن فسر محمد رشيد رضا هذه الآية وخصها في (طهارة نسبهﷺ وفضل قومه وأصفيائه من خيارهم)[١٣]، مع إن الآية تخاطب الناس جميعاً، وتوضح أنهﷺ (ليس من فصيلة غير فصيلة البشر، ولذا فأنه يعيش أحاسيسكم ومشاعركم وأفكاركم في روحيّةٍ من الانفتاح والامتداد والشمول)[١٤].

ولا ريب في ان نسب النبي محمدﷺ أشرف وأطهر نسب، وهذا مما لا خلاف فيه ولا جدال، وسلسلة آباء النبيﷺ واضحة في امتدادها العقائدي، وصلتها الإيمانية بالله تعالى[١٥]، إلا ان تمييز العرب دون غيرهم لا دليل عليه في الآية المتقدمة، وان ساق محمد رشيد رضا جملة من الخصائص لأمة العرب، بعد أن عجز غيره من العلماء الذين ذهبوا إلى رأيه في تفسير الآية المتقدمة، كما وضح هو ذلك في قوله: (ولم أر لأحد من العلماء بياناً لمعنى هذا الاصطفاء بم كان؟.)[١٦].

إن لهذا التفسير سلبيات يقع فيها المفسر في فهم النص القرآني وعالميته وعدم ورود المخاطبات القرآنية خاصة بقوميه دون أخرى، وبهذا يؤيد الباحث ما ذهب إليه الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في انكاره لمن ذهب الى تخصيص رأفة النبي بقومه فقط، إذ

(١٣) تفسير المنار، ١١/ ٨٢.

(١٤) محمد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن، ١١/ ٢٥٣.

(١٥) للتوسعة ظ: أحمد الواحدي، سلسلة آباء النبي، دار المؤرخ العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩١م.

(١٦) تفسير المنار، ١١/ ٨٢، ظ: الرازي، مفاتيح الغيب، ١٦/ ١٨٧.

قال: (إن هذا هو أسوء تفسير ذكر لهذه الآية، لانا نعلم أنّ الشي الذي لم يجر له ذكر في القرآن الكريم هو مسألة الأصل والعرق، ففي كل مكان تبدأ خطابات القرآن بـ (ياأيها الناس) و(ياأيها الذين آمنوا) وأمثالها، ولا يوجد في أي مورد (ياأيّها العرب) و(ياقريش) وأمثال ذلك)[١٧].

إذن فالخطاب عام لجميع الناس، وأن خصيصة الرأفة غير منحصرة بقوم دون قوم، فهي عامة، والى هذا المعنى ذهب السيد محمد حسين الطباطبائي، إذ قال: (إن المراد به أنه بشر مثلكم ومن نوعكم إذ لا دليل يدل على تخصيص الخطاب بالعرب أو بقريش خاصة، وخاصة بالنظر إلى وجود رجال من الروم وفارس والحبشة بين المسلمين في حال الخطاب)[١٨]، فخصيصة الرأفة على الناس كافة من غير الانحياز لقومية او جنس او مصلحة او اعتبار غير اعتبار الإنسانية والإيمان؛ خصيصة انماز بها النبي محمدﷺ على سائر البشر بما أشار إليها القرآن المجيد وأنها عامة شاملة لجميع الناس دون قومية أو أخرى وهذا من انفراداتهﷺ وخصوصياته.

ثانياً: مقامهﷺ بأنه رحمة للعالمين.

أرسل الله تعالى نبيه محمدﷺ إلى البشرية كلها بعد فترة من الرسل منقذاً لها من ضلالات الكفر، وظلمات الجهل، وتخبط الناس في وحل الرذائل، فكانﷺ بعيداً عن كل البعد عن مساؤ الاخلاق كبيرها وصغيرها، لين الجانب سهل العريكة، فقال عنه الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩]، وكانﷺ رحمة للعالمين كافة، وفي وصف حال الناس قُبيل بعثتهﷺ وجهدهﷺ في إنقاذ الناس من هذا الحال ما نلحظه في قول الإمام عليعليه السلام إذ قال: (بعثه والناس ضلال في حيرة، وخابطون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء، واستزلتهم الكبرياء، واستخفتهم الجاهلية

(١٧) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٦/ ١٩٥، وقريب من هذا المعنى ظ: محمد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن، ١١/ ٢٥٢.

(١٨) الميزان في تفسير القرآن، ٩/ ٣٦٢.

الجهلاء حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل، فبالغ ﷺ في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة)[١٩].

وبهذه الخصيصة التي صرح بها القرآن المجيد في أوضح تعبير إذ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧]، فنلحظ ان من اسباب الإرسال الإلهي له ﷺ هو شمول رحمته بكل ما تحمل دعوته من رحمة في الدين وفي الدنيا؛ (أما في الدين فلأنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله تعالى محمداً ﷺ حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب فدعاهم إلى الحق وبين لهم سبيل الثواب)[٢٠] ليحققوا في ذلك العدل المفضي إلى الرحمة في الدين والدنيا من خلال الأحكام الشرعية ومبادئها.

ونلحظ إن خصيصة الرحمة المحمدية في الخلائق على ضربين:

أولاً: ضرب في الدنيا، وينقسم على قسمين:

القسم الأول: الرحمة العامة في الدنيا:

جعله الله تعالى ببعثته رحمة للبشرية كلها، حيث انه حجب عنها الخسف والمسخ والدمار، الذي كان يحل بالأمم السابقة عندما تعاني وتكذب أنبيائها كما إذ رفعت الرحمة في الدنيا بحدوث الطوفان والغرق بقوم نوح، مع وجود نبي الله فيهم عليه السلام، وهو الواضح في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾[٢١] [سورة المؤمنون، ٢٧]، يقول الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ): (اخبر الله تعالى انه لما جاء أمره بإهلاك قوم نوح عليه السلام لاستحقاقهم ذلك بالكفر)[٢٢]، وكذلك قوم هود وصالح بالرياح السامة، والصيحة المهلكة وقوم شعيب بنار يوم الظلة، وقوم لوط بالخسف، وقوم موسى

(١٩) نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ١/ ١٨٦.
(٢٠) الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٢/ ١٩٩، ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٤/ ٢٨٥.
(٢١) [سورة هود: ٤٠].
(٢٢) البيان في تفسير القرآن، ٥/ ٤٣٧.

بالمسخ، إلى قردة وخنازير، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[٢٣].

ونلحظ إن هذه الآيـــة الكريمة صيغت بأبلغ نظم إذ أشتملت بوجازة ألفاظها على مـدح الرسولﷺ ومدح مرسله تعالى ومدح رسالته بان كانت مظهرة رحمة الله تعالى للناس كافة وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه.

فالنبيﷺ (رحمـــة لأهل الدنيا من حيث الآثار الحسنة التي سرت من قيامه بالدعوة الحقة في مجتمعاتهم مما يظهر ظهوراً بالغاً بقياس الحياة العامة البشرية اليوم إلى ماقبل بعثتهﷺ)[٢٤].

وأيضاً من رحمة النبي ما نتلمسه في قوله تعالى لنبيه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ ﴾[سـورة الأنفال: ٣٣] والمعنى (أي وما كان من شأن الله تعـالى وسنته، مقتضى رحمته وحكمته، أن يعذبهم وأنت أيها الرسول فيهم إنّما أرسلناك رحمـة للعالمين ونعمة لا عذاباً ونقمة)[٢٥] فالله سبحانه اظهر خصيصة الرحمة النبوية وفضله على الخلائق كلها فما كان (عز وجل) لينزل عليهم العذاب الذي كان يحل بالأمم السابقة ما دام فيهم نبيه محمدﷺ وذلك لعلو مقامه عنده سبحانه، وفضله وشرفهﷺ.

القسـم الثاني: الرحمة الخاصة في الدنيا.

وهي رحمتـهﷺ لأمته إذ إن الله سبحانه جعل مع وجوده في الدنياﷺ أمراً آخراً إكرامـاً للنبيﷺ وهو الاستغفار قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ ﴾، فلولا هذا الاستغفار الذي فتح لهذه الأمة إكراماً للنبيﷺ وبما هدى الله بـهﷺ من هذه الجماعة امة يستغفرون الله سبحانه، لكان العذاب نازلاً بها، إذ المعلوم إن (عذاب الله إنما يهبط من السماء بعد فراغ قلوب

(٢٣) وهذه الآية (تشتمل على أربعة وعشرين حرفاً بدون حرف العطف الذي عطفت به ذكر فيه الرسول، ومرسله، إليهم، والرسالة وأوصاف هؤلاء الأربعة، مع إفادة عموم الأحوال واستغراق المرسل إليهم..). بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٧/ ١٢١.

(٢٤) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٤/ ٢٨٤.

(٢٥) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ٩/ ٥٦٤.

المجتمع تماماً عن الإيمان، وبعد خروج أو انعدام الصالحين تماماً)[٢٦].

ثانياً: ضرب في الآخرة وهي على قسمين:

القسم الأول: الرحمة العامة في الآخرة: وهذه الرحمة تشمل البشر كلهم حيث يشفع النبيﷺ في الناس لقيام الحساب فيهم، بعد أن عانوا من أهوال المحشر وشدائده، حتى ذهبوا لأولي العزم من الرسل يتوسلون إليهم أن يشفعوا عند ربهم، ولم يكن هذا نافعاً لهم في أمرهم حتى توسلوا بالحبيب محمدﷺ وحين ذاك استجاب لنبي الرحمةﷺ في الخلائق جميعاً، يقول الإمام جعفر الصادقؑ: (يلجم الناس يوم القيامة العرق، فيقولون أنطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا عند ربك، فيقول إن لي ذنباً وخطيئة فعليكم بنوح، فيأتون نوحاً فيردهم إلى الذي يليه حتى ينهون إلى عيسى فيقول عليكم بمحمد رسول اللهﷺ -وعلى جميع الأنبياء -فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه فيقول: أنطلقوا، فينطلق بهم إلى باب الجنه ويستقبل باب الرحمن ويخر ساجداً فيمكث ما شاء الله فيقول الله عز وجل: أرفع رأسك وأشفع تشفع وسل تعط...)[٢٧].

القسم الثاني: الرحمة بأمته في الآخرة.

لا ريب من كان رحمة لغير متبعيه من الأولى أن تكون رحمته شاملة لمتبعيه الذين آمنوا به واهتدوا بهديه، فهؤلاء لهم رحمة خاصة، وهذه الرحمة الخاصة من خصوصياتهﷺ عليهم، فقد كانﷺ بقلبه الرحيم حريص على المسلمين في الحياة الدنيا مع مالاقاه منهم من اعراض او ممن غرر به منهم قبل اسلامهم -إلا مَن احدث منهم بعد رحيل النبي عن الدنيا-، فكان يلتمس لهم العذر ويناجي ربه سبحانه ان يعفو عنهم فيقولﷺ: (اللهم اغفر لقومي إنهم لا يعلمون)[٢٨].

(٢٦) محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ٣/ ١٩٠.

(٢٧) المجلسي، بحار الأنوار، ٨/ ٣٥، ظ: البخاري، صحيح البخاري، ٤/ ١٠٦.

(٢٨) المجلسي، بحار الأنوار، ٩٥/ ١٦٧، ظ: احمد بن حنبل، مسند احمد، ١/ ٤٢٧.

ومن مظاهر رحمته لأمتـــــه ﷺ في الآخرة:

أولاً: الشفاعة:

وهذا بيان لبعض المواقف التي يكون فيها شفاعة النبي ﷺ لأمته:

وهـــب الله سبحانه وتعالى انبياءه دعوة مستجابة في الدنيا، ونبينا محمد ﷺ كسائر الانبياء بل هو اكرمهم قد أعطي في الدنيا دعوة مستجابة ايضاً، إلا ان سائر الانبياء استعجلوا بالدعاء بها في الدنيا ولكنه ﷺ رحمـــة بأمته أدخرها ليشفع لأمته بها يوم القيامة، قال ﷺ: (إن الله أعطاني مسألة فأدّخرت مسألتي لشفاعة المؤمنين من أمتي يوم القيامة ففعل ذلك)[٢٩].

ثم انه ﷺ بين من هُم المحتاجون لشفاعته من هذه الأمة وركز على أن تكون لهم الشفاعة، فقال: (أنما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي)[٣٠].

ثم انه ﷺ بعد أن يفرغ من شفاعة أهل الكبائر من الأمة، يبحث عن المقلين في الأيمان من هذه الأمة الذين دخلوا النار ولا يوجد في قلوبهم إلا الرذاذ من الأيمان فيسعى بالشفاعة لهم، قال الإمام الحسين عليه السلام: (انّ النبي قال في جواب نفر من اليهود سألوه عن مسائل، أما شفاعتي في أصحاب الكبائر ما خلا أهل الشرك والظلم)[٣١]، فنلحظ إن النبي ﷺ يشفع بالذين ليس في أعمالهم شرك أو ظلم، وكان فيها لمم من الذنوب.

ثانياً: الحوض:

ان من دواعي رحمـــة الله تعالى لهذه الأمة بنبيها، ان أكرمها الله تعالى بالحوض ينتظرهم نبيهـــــم ﷺ عليه يوم القيامة ليشربوا منه شربةً بيده لا يظمأون بعدها أبداً، وذلك بعد إن يشتد بهم العطش في ارض المحشر كما قال ﷺ في خطبة حجة الوداع: (أنا فرطكم على الحوض، ولأنازعن أقواماً ثم لأغلبن عليهم فيقال: انك لا تدري ما أحدثوا بعدك)[٣٢]، أي انه تقبل كل هذه الأمة

(٢٩) الطوسي، الامالي، ص٣٦.
(٣٠) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ٣/ ٣٧٦.
(٣١) الصدوق، الخصال، ص٣٥٥.
(٣٢) المجلسي، بحار الأنوار، ٧/ ٢٣٩، ظ: احمد بن حنبل، مسند احمد، ١/ ٢٥٧، البخاري، صحيح البخاري، ٧/ ٢٠٦.

على الحوض فيطرد منهم أقواماً بدلوا وغيروا في دينهم، وفي نهج نبيهم وما ذلك الطرد إلا نتاج السير وراء سراب الضلالات في الدنيا.

وهذه الخصيصة نلحظها في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [سورة الكوثر: ١]. فمن ابرز مصاديق الكوثر هو الحوض[٣٣] إذ ملّك سبحانه وتعالى حبيبه محمدﷺ هذا الحوض يوم القيامة يسقى منه المؤمنين، يقول الشيخ الطوسي: (الإعطاء إخراج الشيء إلى آخذ له، وهو على وجهين: إعطاء تمليك وإعطاء غير تمليك، فإعطاء الكوثر إعطاء تمليك كإعطاء الأجر، وأصله التناول من عطا يعطوا إذا تناول)[٣٤].

وعن الإمام جعفر الصادقؑ في معنى الكوثر قال: (نهر في الجنّه أعطاه الله نبّيه عوضاً عن ابنه)[٣٥]، فهذه خصيصة انفرد بها النبي محمدﷺ مع خصائصه الأخرى عن الخلق أجمعين، فهذا إعطاء من رب العالمين إليه، إكراماً لنبيه ﷺ وتعظيماً له، إذ أن (افتتاح الكلام بحرف التأكيد -في بداية السورة -للاهتمام بالخبر، والإشعار بأنه شيء عظيم يتتبع الإشعار بتنويه شأن النبيﷺ، وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم)[٣٦].

ثالثاً: المقام المحمود يوم القيامة:

ومن خصائص النبي يوم القيامةﷺ في الآخرة هو المقام المحمود، وهذا ما صرّح به النص المبارك قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [سورة الاسراء: ٧٩]، فهذا المقام مقام تشريف وتعظيم للنبي محمدﷺ على سائر الخلق، إذ إن المقام: (محل القيام، والمراد به المكان المعدود لأمر عظيم، لأنه من شأنه أن يقوم الناس فيه ولا

(٣٣) قيل في تفسير الكوثر آراء كثيرة، ولكن هذه التفاسير تبين غالباً المصاديق البارزة لمعناها الواسع وهو الخير الكثير، للتوسعة في هذا الآراء ظ: الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٢/ ١٣٣، ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٢٠/ ٣٨٥، واختار الباحث هنا ما يناسب البحث.

(٣٤) التبيان في تفسير القرآن، ١٠/ ٣٥٠.

(٣٥) القمي، تفسير القمي، ص٧٧١.

(٣٦) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٣٠/ ٥٠٢.

يجلسوا، وإلا فهو المجلس)[٣٧].

ويوضح الشيخ الطبرسي أهمية هذا المقام واختصاص النبي الأكرم به، فيقول: (معناه يقيمك ربك مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون، وهو مقام الشفاعة تشرف فيه على جميع الخلائق، تسأل فتعطى، وتشفع فتشفع، وقد أجمع المفسرون على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة، وهو المقام الذي يشفع فيه للناس، وهو المقام الذي يعطي فيه لواء الحمد، فيوضع في كفه ويجتمع تحته الأنبياء والملائكة فيكون: أول شافع وأول مشفع)[٣٨].

ونلحظ إن كلمة محمود وردت بشكل مطلق، فهي -ظاهراً -تشير إلى إن حمد الأولين والآخرين يشمل الحبيب محمداًﷺ، وما يكون هذا الحمد للنبيﷺ من الناس يوم القيامة إلا لوجود (الإنعام الذي لأجله يصير محموداً إنعاماً سيصل منه حصل له بعد ذلك إلى الناس وما ذاك إلا شفاعته عند الله)[٣٩] تعالى، فهذا المقام المحمود هو الشفاعة الكبرى، وهذا المقام خصيصة أنفرد بها النبيﷺ دون سائر الخلق أجمعين بنص القرآن الكريم.

رابعاً: شهادتهﷺ على جميع الخلائق:

إن من عدل الله (عز وجل) على جميع الخلائق يوم القيامة، أن يشهد بعضهم على بعض، حتى لا يكون لأحد حجة على الله، فيجعل لكل أمة شهيداً عليها، من نفسها وهو نبيها الذي أرسل فيها، قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [سورة النساء: ٤١]، يقول الشيخ الطوسي: (والشهادة تقع يوم القيامة من كلّ نبيّ بأنه بلغ قومه ماتقوم به الحجّة عليها من مراد الله)[٤٠].

وبما أن مقام الشهادة على الأعمال من أعظم مقامات النبيﷺ في أمته، فإذا

(٣٧) بن عاشور، التحرير والتنوير، ١٤/ ١٤٦. لم يجد الباحث بحسب تتبعه معنى المقام الذي تعنيه الآية الكريمة في مصادر اللغة.

(٣٨) مجمع البيان، ٦/ ٢١٤.

(٣٩) الرازي، مفاتيح الغيب، ٢١/ ٢٦، ظ: ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ٩/ ٦٤، كمال الحيدري، الشفاعة، ص٣١٨.

(٤٠) التبيان في تفسير القرآن، ٣/ ١٩٤.

(لم يطعه شخص في الدنيا فأنه في الآخرة شهيد عليه)[٤١]، وفي هذه الخصيصة النبوية الواردة في الآية مبالغة في الحث على الطاعة واجتناب المعصية والزجر عن كل ما يستحيي منه على رؤوس الإشهاد، لأنه يشهد للإنسان وعليه يوم القيامة شهود عدول لا يتوقف في الحكم بشهادتهم، ولا يتوقع القدح فيهم..)[٤٢].

خامساً: مقامﷺ بالتوجيه القرآني إلى الأدب في خطابهﷺ:

لقد خاطب الله تعالى نبيه الخاتمﷺ تشريفاً له بالنبوة والرسالة , ولم يخاطبه باسمه كما خاطب بقية الأنبياء والرسل، وهذا واضح في نصوص الذكر الحكيم منها في قوله تعالى: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًا ﴾[سورة البقرة: ١٤٣]، وفي قوله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[سورة النساء: ٨٠]، وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[سورة الانفال: ٦٤]، وغيرها الكثير من النصوص التي تؤكد هذا المقام السامي للنبي الخاتمﷺ.

في حين نلحظ ان في القرآن الكريم آيات كثيرة يخاطب الله بها الأنبياء بأسمائهم، منها ما نلحظه في قوله تعالى: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ﴾[سورة مريم: ١٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ﴾ [سورة آل عمران: ٥٥]. وغيرها من الآيات التي خاطبت الأنبياء والرسل الكرام بأسمائهم.

إذن من باب الأولى ان تحث النصوص القرآنية المؤمنين على الالتزام بآداب معينة عند تعاملهم فيما بينهم اثناء ممارسة نشاطهم في حياتهم اليومية، والنبيﷺ كسائر المؤمنين ممن يشمله الخطاب القرآني في تعامله مع الناس، إلا انّا نلحظ ان الحث على الالتزام بهذه الآداب التي وجه به القرآن الكريم الناس في تعاملهم مع النبيﷺ ان تركها مقرون باحباط الأعمال.

فكانت هذه الآداب هنا مقام

(٤١) محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ٢/ ٥٨.

(٤٢) الطبرسي، مجمع البيان، ٣/ ٧١.

اختص به الحبيب محمدﷺ، وان التارك لهذه الآداب آثم قلبه، فمما اختص بهﷺ من دون الناس هو:

أولاً: مقامه في عدم التقدم بين يديهﷺ في الاقتراح عليه، وان ذلك الالتزام الأدبي والأخلاقي نابع من الإيمان به وان له خصوصيته التي انفرد بها على سائر البشر، وهذا واضح جلي فيما ألزمنا القرآن الكريم من الخلق الواجب، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[٤٣] [سورة الحجرات: ١]، فنلحظ (إطلاق النداء للناس من خلال صفة الإيمان، يوحي بأن هذا التعليم ينطلق من مضمون الإيمان في حركته الروحية والسلوكية)[٤٤] التي انفرد بها النبي الأكرمﷺ.

ثانياً: مقامه بعدم رفع الصوت في حضرتهﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [سورة الحجرات: ٢]، فهذه الخاصية انفرد بهاﷺ على سائر البشر، فكان أن تحبط الأعمال وتخرج مرتكبها من حيز الإيمان (إن قصد بها الإساءة والإهانة لشخص النبي ومقامه الكريم فذلك موجب للكفر، وإلا فهو إيذاء له وفيه إثم أيضاً..)[٤٥].

وان الأمر لا يقف في هذه الخصوصية على كونه بين ظهرانيهم، بل حتى عند قبره الشريف، يقول القرطبي: (وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبرهﷺ، وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفاً لهم؛ إذ هم ورثة

(٤٣) ذكر المفسرون لنزول الآية أسباب منها: حين أراد النبيﷺ أن يتوجه إلى خيبر رغب في أن يخلّف شخصاً معينا مكانه في المدينة وينصّبه خليفةً عنه، فاقترح عمر شخصاً آخر، فنزلت الآية وأمرت أن لا تقدموا بين يدي الله سبحانه ورسوله. ظ: القرطبي (ت٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ١١٧.

(٤٤) محمد حسين فضل الله، تفسير من حي القرآن، ٢١/ ١٣٦. ظ: الآلوسي، روح المعاني، ٢٦/ ٤٠٠.

(٤٥) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٦/ ٣٧٣. ظ: الآلوسي، روح المعاني، ٢٦/ ٤٠٢.

الأنبياء)[٤٦].

ثالثـــاً: مقامـــــه باستئذانه عند الانصراف عنه ﷺ: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٤٧] [سورة النور: ٦٢]، وهنا نلحظ بوضوح وجـــوب الاستئذان حين الانصراف من مجلسهﷺ، وإن عدم الاستئذان علامة داله على إن فاعله منافق، وان روحه قد امات فيها الإيمان، فكان أن (نعى الله عليهم فعلهم هذا وأعلم بمنافاته للإيمان وأنه شعار النفاق)[٤٨]، فخاصيـــــة الاستئذان هنا دالة على الإيمان بنص القرآن الكريم، فكان مما انفردﷺ بها على سائر البشر لما فيها من دلاله لا تقبل الشك بان تارك الاستئذان منافق أيضاً.

رابعـــاً: مقامه بأدب مناجاتهﷺ: ومما انفرد به النبي الأكرم هو ما فرضه الله سبحانه من حكم شرعي على الناس عند مناجاتهﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة المجادلة: ١٢].

وهـــذه الآية وإن كانت منسوخة بقوله تعالى: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٤٩] [سورة المجادلة:

(٤٦) الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ١٢١.

(٤٧) ويستدل بهذه الآية على التفويض لهﷺ من قبل الله سبحانه، يقول القاسمي: (استدل بالآية على أن بعض الأحكام مفوّضة إلى رأيهﷺ. وتسمى هذه المسألة مسألة التفويض)، محاسن التأويل، ٧/ ٣٠٥٩.

(٤٨) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٨/ ٢٤٥.

(٤٩) وفي هذه الآية خصيصة لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام لم يشاركه فيها أحد قط، وذلك هو الواضح من سبب نزل هذه الآية الكريمة هو إن الأغنياء (كانوا يأتون النبيﷺ فيكثرون مناجاته، حتى كره رسول اللهﷺ ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم، فانزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، وأمر بالصدقة عند المناجاة، فأما أهل العُسرة فلم يجدوا شيئاً، وأما أهل الميسرة فبخلوا)، قال الإمام

٣]، وذلك لأجل ابراز معانٍ سامية منها احتراماً لوقت النبي ومصلحة الجماعة على الفرد، فالقرآن المجيد (يعلمهم أدباً آخراً في علاقتهم برسول اللهﷺ،...، فشاء الله أن يشعرهم بهذه المعاني بتقرير ضريبة للجماعة من مال الذي يريد أن يخلو برسول اللهﷺ. ويقدمها في صورة صدقه قبل أن يطلب المناجاة)[٥٠].

فنلحظ إن هذا التشريع الأدبي في المناجاة وغيرها كان خاص بالنبي الأكرم دون سائر البشر، وفيه دلاله واضحة على رفعة مقامهﷺ وسمو الهيبة التي أرادها الله سبحانه لنبيه الخاتم وتميزه عن سائر الناس، وهي مع كونها تأديب لهم فهي أيضاً لفت نظر إلى الحقيقة المحمّدية العظمى.

المطلب الثاني:

المقامات المائزة لهﷺ على الأنبياء والمرسلين.

من المعلوم إن من تمام الإيمان بالعقيدة الإسلامية هو الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، والتصديق بهم جميعاً، وان هؤلاء الأنبياء والرسل الكرام قد فُضل بعضهم على بعض، وذلك لخصائص امتاز بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾[سورة البقرة: ٢٥٣].

والله سبحانه خص نبينا محمّدﷺ بخصائص ميزته على جميع الأنبياء والمرسلين، وذلك ما يصرّح به في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[سورة الأحزاب: ٧]، فتقدّم النبي محمدﷺ في

علي عليه السلام: (إن في كتاب الله لآية ما عَمِلَ بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي -فذكر الآية أعلاه -كان لي دينار فبعته بدراهم وكنت إذا ناجيت الرسول تصدقت بدرهم حتى نفذ، فنُسخت بالآية الأخرى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾). الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ)، أسباب النزول، ص٢١٣-٢١٤، ظ: الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ٢٨/ ١٥، المجلسي، بحار الانوار، ١٧/ ٢٩.

(٥٠) سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٥١٢.

الذكر هو تقديم بالرتبة إذ (بدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه، ثم رتبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم)[٥١].

ولبيان مكانة هذا الشرف في القرآن المجيد -بحسب إمكان الباحث - قسمنا هذا المطلب على المحاور الآتية:

أولاً: مقامه ﷺ على الأنبياء والرسل بختم الرسالة:

من المقامات المائزة للحبيب محمد ﷺ على من اصطفاهم الله عز وجل لحمل رسالاته إلى الناس وكرمهم بما امتازوا به على الناس من صفات وشمائل أهلتهم لهذا الشرف العظيم، فكان ان جعل سبحانه نهاية مطاف هذا الشرف عند نبيه محمد ﷺ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الخصيصة في قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[سورة الأحزاب: ٤٠].

وبهذه الخاتمية تكمن خصيصة التكامل إذ (إن كل واحد من الأنبياء السابقين قد مهّد جانباً من مسير التكامل ليكون الإنسان قادراً على سلوك هذا الطريق الصعب نحو التكامل وينال الأهلية لاستقبال منهج كامل وجامع لهذا الطريق على يد آخر نبي أرسل من قبل الله تعالى)[٥٢].

فمن البديهي انه مع استلام الخريطة الكاملة والمخطط الجامع سوف لا تكون هناك حاجة الى مخطط آخر، وهذا في الحقيقة هو التعبير الذي ورد في الروايات الدالة على كونه ﷺ خاتماً، والتي عدّت نبيّ الإسلام آخر لبنة، أو واضع آخر لبنة في قصر الرسالة البديع المحكم، وكل ذلك يؤكد عدم الحاجة الى دين جديد وشريعة مستحدثة.

ومن هذه الأحاديث الدالة على ما تقدم قوله ﷺ: (مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع اللبنة، قال رسول الله ﷺ: فأنا موضع

(٥١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٧٦.

(٥٢) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ١٣/ ٣٠٤.

اللبنة جئت فختمت الأنبياء)[٥٣].

ثانيـــاً: مقامه ﷺ على الأنبياء بعموم الرسالة:

وخصيصة عالمية الرسالة المحمدية وعموميتها في قبال خصوصية الرسالات السابقة منصوص عليها قرآنياً، وذلك من خلال تقييد الرسالات السابقة بأقوامها، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [سورة الروم: ٤٧]، وقـــوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ﴾ [سورة يونس: ٤٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [سورة يونس: ٤٧].

وقال تعالى بخصوص رسالة النبي عيسى عليه السلام: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [سورة آل عمران: ٤٩]، وغيرها من الآيات التي تنص على محدودية الابلاغ الرسالي في مهام الأنبياء عليهم السلام، من ذلك ما نلحظه أيضاً في قوله تعالى في حق النبي الشعيب عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [ســـورة الاعراف: ٨٥]، وقوله تعالى عن نبيه صالح قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ [سورة الاعراف: ٧٣]، فنجـــد إن ارسال الانبياء والرسل كان الى قوم معينين وفي مناطق جغرافية محددة، وهذا لم نلحظه في الرسالة المحمدية، فهي عامة.

فكـان ان انفرد النبي ﷺ عن سائر الأنبياء بخصيصة عظيمـــة تليق مع الاستعداد الذي حظي بـــه ﷺ ومكانه سابقة، وهي عموم رسالتـــه، فقد دلت النصوص على عموم رســـالة النبي محمد ﷺ للثقلين الإنس والجن وليس للعرب خاصة، قـــال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [سورة الفرقان: ١]، إذ إن (المراد بالعالمين عند جمع من العالمين الإنس والجن ممن عاصره ﷺ إلى يوم القيامة..) وإرساله ﷺ إليهم معلوم من الدين بالضرورة فيكفر منكره، وكذا الملائكة عليهم السلام)[٥٤].

(٥٣) مسلم، صحيح مسلم، ١٥/ ٥٢.

(٥٤) الآلـوسي، روح المعـاني، ١٨/ ٥٧٢، وذهب ابن عاشور الى القول في العالمين: هو (جميع الأمم من البشر)، وهذا لا يصمد أمام الدليل إذ إن لفظ (العالمين) أوسع في مدلولها على البشر فقط، يقول الجرجاني:

فعالميـــة رســـالة الدعوة المحمدية (نسيج يتغلغل في عمق الإسلام وتتشابك خيوطه بإحكام ويتحرك بفاعلية من خلال كل ثنايا الإسلام وأفكاره)[٥٥]، فرسالتهﷺ المتمثلة في القـــرآن المجيد عالميـــة وإن (كان عربي النص إلا أنه عالمي الدلالـــة، وهو وإن كان إنساني الرسالة إلا أنه عربي العبارة)[٥٦]، ومن ثم فهي -العالمية -ليست فكرة عائمة ولا أطروحة عابرة ولا دعوة عاطفية ولا شعاراً يقف على هامش الحياة الإسلامية، بدايتها بداية الإسلام نفسه، وهي قمة هرمه الفكري المتمثل بعقيدة التوحيد التي لم ولن تعرف البشرية ما يناظرها روعة وبهاءً.

(العالم عبارة عن كل ما سوى الله من الموجودات)، كتاب التعريفات، ص ١١٩.

(٥٥) عبد الكريم آل نجف، الأبعاد العالمية في العقيدة الإسلامية، مجلة الفكر الإسلامي، السنة ٢، العدد ٨، ١٤١٥هـ، ص١٧٥.

(٥٦) د. محمد حسين الصغير، البعد العالمي في القرآن، بحث منشور ضمن أعمال الندوة المتخصصة تحت شعار: (عالمية القرآن)، كلية التربية/ جامعة الكوفة، الذكرى العاشرة لتأسيس جامعة الكوفة، ٥/ ١/ ١٩٩٨م.

ومن عموم رسالة النبي محمدﷺ يتضح مايأتي:

١. انهﷺ بخصيصـــة العموم أفضل الأنبيـــاء والمرسلين، وذلك انه كلما توسعت مهمـــة أي عامل في مكان عمله، فهو بيان نجاحـــه وفضله على من هو أدنى منه، وكذلك كلما توسعت رسالة نبي عن محيطها فهي علو شأنٍ لصاحب هذه الرسالة، فما دامت رسالة محمدﷺ قد خرجت عن محيطها التي بُعثت فيه وهي مكة، حتى عمت العالم بأسره، فهو بيان لعلو شأن صاحب هذه الرسالةﷺ، وخاصة ان رسالته شملت الإنس والجن.

٢. إن أمته أفضل الأمم، ففضل الأمة بفضل المبعوث فيها، وما دام هو أفضل الأنبياء، فمن الطبيعي ان يكون شرفها من شرف نبيهاﷺ.

٣. إن حاجة أهل الكتاب لرسالته، لا تقل عن حاجة العرب وعُباد الأصنام لها، فهم بحاجة لتجديد شريعتهم التي حُرفت ودخلها الكثير من

الضلالات، والتي ذكرها القــرآن المجيد.

ثالثــاً: مقامهﷺ بكثرة المعجزات ودوامها:

المعجزة -كما عرفها الشيخ الطبرسي (ت٥٤٨هـ): هي (أن يأتي الإنسان بشيء يعجز خصمه عنه ويقصر دونه فيكون جعله عاجزاً عنه)[٥٧]، وعرفها السيــد الخوئي (ت١٤١٣هـ): (أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق نواميس الطبيعية ويعجز عنه غيره شاهداً على صــــدق دعواه)[٥٨]، وبهذا الإعجاز يكون النبي مؤيد من السماء وبحجة دامغة دلالة على صدق اتصاله برب العالمين.

والمعجزات تختلف في حجمها وقوتها وكثرتها، من نبي إلى نبي آخر، فكل نبي كانت معجزته موافقة لطبيعة القوم الذين بُعث فيهم، من ناحية عنادهم وما اشتهروا به من فنون، وتنقسم المعجزة على قسمين: معجزة معنوية، ومعجزة حسية، وان من أهم مايميز نبينا محمدﷺ في معجزاته، وفضله بها على الأنبياء انه ما من نبي سبقه، إلا كانت له معجزة أو بعض المعجزات الحسية فقط، أما نبينا محمدﷺ فقد عُرف بالمعجزات الحسية والمعنوية معاً[٥٩].

ونلحظ ذلك فيما يلي:

١. **المعجــــزات المعنوية**: وتكاد أن تنحصر في القرآن الكريم؛ فإنزال القرآن من أعظم المعجزات، وأبهر الآيات، وأبين الحجج الواضحات، لما اشتمل عليه المعجز الذي تحدى به الإنس والجن، أن يأتوا بمثله، فعجزوا عن ذلك مع توافر دواعي أعدائه على معارضته، وفصاحتهم وبلاغتهم حتى تحداهم بعشر سور منه، فعجزوا، ثم تنازل إلى التحدي بسورة واحدة من مثله، فعجزوا عنه، وهم يعلمون عجزهم وتقصيرهم عن ذلك، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا

(٥٧) مجمع البيان في تفسير القرآن، ٤/ ١٦٧.
(٥٨) البيان، ص٤٤.
(٥٩) ظ: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ٢/ ٣١١.

بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[سورة الاسراء: ٨٨].

وفي هذه الآية الكريمة (دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة ما جاء به الرسول وصدقه، حيث تحدى الله الإنس والجن ان يأتوا بمثله واخبر أنهم لا يأتون بمثله ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه)[٦٠]، والتحدي مستمر إلى ان يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، يقول سيد قطب: (وهذا التحدي ظل قائماً في حياة الرسولﷺ وبعدها، وما يزال قائماً إلى يومنا هذا وهو حجة لا سبيل إلى المحاكة فيها... وما يزال القرآن يتميز من كل كلام يقوله البشر تميزاً واضحاً قاطعاً وسيظل كذلك أبداً)[٦١].

والقرآن معجزه فيما أبدع من ثورة علميّة وثقافية في ظلمات الجاهلية الجهلاء، وقد أرسى قواعد نهضته على منهج علمي قويم، فحث على العلم وجعله العامل الأول لتسامي الإنسان نحو الكمال اللائق به، فهو معجز في كل جوانب الحياة، ولم يختص بفن من دون آخر، وان الأجيال القادمة سوف تكشف لنا ما عجزنا نحن عن إدراكه، إذ الإعجاز القرآني (يظل مطروحاً على الأجيال تتوارد عليه جيلاً بعد جيل، ثم يبقى أبداً رحبَ المدى سخي المورد، كلما حسَب جيلٌ أنه بلغ منه الغاية، امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح، عالياً يفوت طاقة الدارسين)[٦٢].

٢. **المعجزات الحسية**: وهي كثيرة اختص بها النبيﷺ من دون سائر الأنبياءعليهم السلام، يكتفي الباحث منها بذكر معجزتين، وعلى النحو الآتية:

أ. انشقاق القمر إلى نصفين: وهذا نلحظه في قوله تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [سورة القمر: ١]، وذلك إن القمر (انفصل

(٦٠) عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنّان، ص ٥٠٠.

(٦١) في ظلال القرآن، ١/ ٤٨.

(٦٢) د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، الإعجاز البياني للقرآن، دار المعارف، مصر، ١٩٧١م، ص١٣.

بعضه عن بعض فصار فرقتين شقتين -والآية تشير -إلى آية شق القمر التي أجراها الله تعالى على يد النبي ﷺ بمكة قبل الهجرة اثر سؤال المشركين من أهل مكة، وقد استفاضت الروايات على ذلك، واتفق أهل الحديث والمفسرون على قبولها كما قيل)[٦٣].

وبهذا لا خلاف من اختصاص النبي ﷺ بهذه المعجزة العظيمة على سائر الأنبياء عليهم السلام، فلم يذكر لنا القرآن المجيد، وكتب السير والتاريخ ان احداً من الأنبياء الكرام قد اشترك مع النبي ﷺ بهذا الإعجاز، وبهذا يبقى (انشقاق القمر من آيات رسول الله ﷺ ومعجزاته النيرة)[٦٤].

ب. القرب من سدرة المنتهى: بلغ ﷺ من القرب الإلهي ما لم يبلغه نبي مرسل، أو ملك مقرب، وإذا كان الله تعالى كلم موسى عليه السلام تكليماً بالواد المقدس طوى، كما هو الواضح في قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾[سورة النساء: ١٦٤]، ومكان وقوع الكلام نلحظه في قوله تعالى: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾[سورة طه: ١٢]، وقد اجمع أهل العلم ان هذا الواد مهما كان شأنه وقداسته فهو على هذه الأرض[٦٥].

أما الحبيب محمد ﷺ فقد اختص بالكلام مع رب العزة في السموات العلى، والقرب الإلهي، قال تعالى: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴾[سورة النجم: ١١ -١٤]، والسدرة شجرة في السماوات[٦٦]، وهذا المكان لم يصل إليه نبي مرسل أو ملك

(٦٣) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ٥١/ ١٩، وقد ذهب الحسين وعطاء والبلخي إلى إن هذا الإعجاز يكون عند قيام الساعة، وهذا خلاف المشهور والقرائن، للتوسعة. ظ: ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل، ١٧/ ٢١٧.

(٦٤) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٤٣١.

(٦٥) الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، ١٦/ ١٦٨.

(٦٦) ظ: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ٩/ ٣٤٠.

مقرب، فعن الإمام محمد الباقر عليه السلام في حديث طويل: (.. فلما انتهى به صلى الله عليه وآله إلى سدرة المنتهى تخلّف عنه جبرائيل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: في هذا الموضع تخذلني؟. فقال: تقدم أمامك فو الله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه أحد من خلق الله قبلك فرأيت من نور ربي وحال بيني وبينه السبحة.

قلت: وما السبحة جعلت فداك؟. فأومى بوجهه إلى الأرض وأومأ بيده إلى السماء وهو يقول: جلال ربي ثلاث مرات)[٦٧].

ونلتمس هذا القرب المحمدي إلى الذات الإلهية، وانفراده بهذه الخصيصة من دون سائر الأنبياء والرسل عليهم السلام وتأكيده ما نلحظه في كلام الإمام علي بن الحسين (السجاد) عليه السلام، إذ قال في أهمية هذه المعجزة: (أنا ابن من علا فاستعلى فجاز سدرة المنتهى فكان من ربه قاب قوسين أو أدنى)[٦٨].

رابعاً: مقامه صلى الله عليه وآله بأن رفع له ذكره:

إن من أهم خصائص النبي صلى الله عليه وآله القرآنية عند ربه ان رفع سبحانه له ذكره على الخلائق، ولم يحظ نبي مرسل بهذه الخصيصة، فقال تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[سورة الانشراح: ٤].

وفي بيان معنى رفع الذكر، يقول السيد الطباطبائي: (رفع الذكر إعلاؤه عن مستوى ذكر غيره من الناس وقد فعل سبحانه به ذلك، ومن رفع ذكره ان قرن الله اسمه صلى الله عليه وآله باسمه فأسمه قرين اسم ربه في الشهادتين اللتين هما أساس دين الله، وعلى كل مسلم ان يذكره مع ربه كل يوم في الصلوات الخمس المفروضة)[٦٩].

وبهذا يرى الباحث إن الله سبحانه خص النبي محمد صلى الله عليه وآله بمقام الرفعة والذكر بأفضل ما كان قد أعطى الأنبياء والرسل عليهم السلام، فإن كان الله تعالى اسجد ملائكته لآدم عليه السلام فهي لم تكن إلا سجدة واحدة ما تكررت ثانية، ولكن القرآن المجيد يذكر ان الله سبحانه يصلي على

(٦٧) المجلسي، بحار الأنوار، ١٨/ ٣٧٣.
(٦٨) المصدر نفسه، ٤٥/ ١٧٤.
(٦٩) الميزان في تفسير القرآن، ٢٠/ ٣٠٦، ظ: الرازي، مفاتيح الغيب، ٣٢/ ٦.

النبي محمدﷺ وأمر ملائكته والناس أجمعين ان يصلوا عليه إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾[سورة الأحزاب: ٥٦]. ففي هذه الآية نلحظ ان الله سبحانه يصلي عليهﷺ وأمره تعالى الناس بالصلاة على النبي (إنما هو لإظهار تعظيمهﷺ، كما ان الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له إليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه منا شفقة علينا ليثيبنا عليه، ولهذا قالﷺ: (من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً)[٧٠] [٧١].

وان كان الله تعالى خاطب كل نبي بأسمه كقوله: ياآدم، يا نوح، يا إبراهيم، يالوط ياعيسى، فقد نادى حبيبه محمداًﷺ بأشرف الألقاب والرتب وخصه بها، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ [سورة المائدة: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾[سورة الطلاق: ١]، فنلحظ أيضاً انهﷺ (خوطب بلفظ الجماعة تعظيماً وتفخيماً)[٧٢].

وان كان الله سبحانه قال لإبراهيم إذّن بالناس، فإن الله تعالى أمر المؤمنين في العالم بأسره ان يأذنوا باسم الله ومعه اسم محمدﷺ، وان كان الله تعالى إذا ما اشتد الأمر بأحد الأنبياء اقسم له بنفسه المقدسة، انه سيفعل كذا وكذا، فأنه (عز وجل) قد أقسم لمحمدﷺ بعمره حباً له وإجلالاً له، قال تعالى: ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾[سورة الحجر: ٧٢]، ومعنى ذلك أي (قسماً بحياتك يا رسول الله، وأنت يا من تتلو القرآن إن قوم لوطؑ قد فقدوا أبصارهم بسبب سكره الشهوات، والعُمرْ والعَمرْ بمعنى

(٧٠) احمد بن جنل، مسند احمد، ٢/ ٣٧٢، المجلسي، بحار الأنوار، ٩١/ ٦٣.

(٧١) الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١٩٦، وأما كيفية الصلاة، فقالﷺ: (اللهم صل وسلم وبارك على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم انك حميد مجيد)، وقالﷺ: لا تصلوا علي الصلاة البتراء، وهو ذكره من دون آلهؑ، ظ: احمد بن حنبل، حسن احمد، ٦/ ٣٢٣ البخاري، صحيح البخاري، ٤/ ١٤٦.

(٧٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ٩/ ٤٥٥.

واحد ولكن عند الحلف يستخدم عَمرْ بالفتح)[٧٣].

وبكلمة.. إن الله العظيم المتعال ميز نبيه محمدﷺ بخصائص مائزه لحظناها هنا ارتباط ذكرهﷺ مع رب العزة، وما ذاك إلا تشريفاً لحبيبة وتعظيماً له، ولا يوجد تعظيم أعظم من اقتران ذكره بذكره.

خامساً: مقامه على الأنبياء عليهم السلام بالإسراء والمعراج:

إن الله تعالى جعل لكل نبي من الأنبياء مناجاة، منها ما كان عن طريق الوحي، وهو ماحدث لأكثر الأنبياء والرسل، ومنها ما كان من وراء حجاب، كما حدث لموسىعليه السلام في الوادي المقدس طوى.

أما نبينا محمدﷺ فمناجاته كانت مائزة عن سائر مناجاة إخوانه من الأنبياء والرسل، فهي خاصة، إذ لم تكن لأحد من قبله منهم، إذ اختار له ربه عز وجل مناجاة خاصة في السماء، إذ أرسل له ملك الوحي جبرائيلعليه السلام فعرج به إلى السماء، وهناك كانت المناجاة العظمى، والتي تشرف بها نبينا محمدﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة الإسراء: ١]، فأول ما نلحظه في هذه الآية فيما يخص نبينا محمدﷺ هو إضافة الضمير المقدس إلى لفظ العبد المعني به رسولنا الأكرم، وهذه ميزة اختص بها النبي الأكرم دون سائر الأنبياء والرسل، إذ لم يرد في القرآن المجيد هذا التعبير لأحد منهمعليهم السلام، إذ أضاف ضمير الغيبة المشار به إلى الهوية، وفي ذلك من الإشارة ما فيه، ومن تأمل أدنى تأمل مابين قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [سورة

(٧٣) محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ٤/ ٢٨٨، ظ: الرازي، مفاتيح الغيب، ١٩/ ١٦١، وقد ذهب الزمخشري ومحمد حسين فضل الله إلى إن المخاطب هنا هو نبي الله لوط، ظ: الكشاف، ٢/ ٥٤٦، تفسير من وحي القرآن، ١٣/ ١٧٠.

الأعراف: ١٤٣]، يظهر له الفرق التام بين مقام الحبيب ومقام الكليم عليه السلام[٧٤].

ونلحظ أيضاً في الآية الكريمة ان القرآن المجيد ذكر نبينا بصفة العبد، ولم يذكره إلا في مقامات خاصة[٧٥] كان أشرفها مقاماً هو مقام الإسراء.

واختلف أهل التفسير في كيفية الإسراء والمعراج، هل هي بالجسد والروح في حال اليقظة، أم هي بالروح فقط في حال النوم؟[٧٦].

ومهما يكن من أمر فالذي يركن اليه الباحث هو الإسراء بالروح والجسد معاً، وذلك (أننا عندما ندرس الآية المتضمنة للإسراء، نرى ان الإسراء بالجسد هو المعنى الظاهر منها، وذلك لما توحي به كلمة (الإسراء) من معاني الحركة والتنقل من مكان إلى مكان، وان كان ظرفه هو الليل دون النهار، وما توحي به كلمة (عبده) من التعبير عن الذات بمعناها المادي والجسدي)[٧٧].

إذن اختص النبي محمد صلى الله عليه وآله في الإسراء والمعراج بمقام رفيع، وحظي بمناجاة ربه عند الحضرة القدسية، وهذا الأمر لم يحظ به الأنبياء والرسل فهو تكريم وتشريف عظيم، ان دل على شيء يدل على عظم منزلة الحبيب محمد صلى الله عليه وآله عند الله سبحانه، ومن ثم على علو شأن نبينا ومقامه المعظم من لدن الله تعالى.

سادساً: مقامه صلى الله عليه وآله بخصال لم تعط لنبي قبله:

إن الله سبحانه أعطى أنبيائه عطايا تنسجم مع مقامهم وفضلهم، وكذلك طبيعة رسالته، وقد خص سبحانه نبينا محمد صلى الله عليه وآله بخصال ما أعطاها للأنبياء

(٧٤) ظ: القاسمي، محاسن التأويل، ٦/ ٢٥٨٠، الآلوسي، روح المعاني، ١٥/ ٨، البقاعي، نظم الدور، ٤/ ٣٢٧، الطبرسي، مجمع البيان، ٦/ ١٦٢.

(٧٥) مقام الدعوة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [سورة الجن ١٩]، ومقام التحدي: قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [سورة البقرة: ٢٣].

(٧٦) للتوسعة، ظ: محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٣/ ٥، الرازي، مفاتيح الغيب، ٢٠/ ١١٧، القاسمي، محاسن التأويل، ٦/ ٢٥٨٤.

(٧٧) محمد حسين فضل الله، تفسير من وحي القرآن، ١٤/ ١٠.

السابقين سواء من المعجزات، أو من الشرائع، وسنحاول بقدر المستطاع بيان هذه الخصال قرآنياً، كما يأتي:

١. النصرة بقذف الرعب في قلب أعدائه: وهذه من أفضل ما أعطي رسول الله ﷺ من خصال ما أعطاها لنبي من قبله، وذلك ان سلاح الرعب كان لرسول الله ﷺ سلاحاً فتاكاً يزلزل قلوب أعدائه.

قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[سورة الأنفال: ١٢]، فهذه الآية تتحدث عن اللحظات الحساسة من واقعة بدر، والألطاف الإلهية الكثيرة التي شملت المسلمين لتثير في نفوسهم الإحساس بالطاعة والشكر، ولتعبيد الدرب نحو انتصارات المستقبل، وما ذاك إلا لوقوع الرعب في قلوب المشركين، وما كان هذا الرعب ليكون لولا ان خص الله تعالى نبيه ﷺ بان نصره بوقوع ذلك الرعب في قلب أعدائه، إذ (من العجب والغرابة ان ينهار جيش قريش القوي أمام جيش المسلمين القليل، وان تذهب معنوياتهم-كما ينقل التاريخ -بصورة يخاف معها الكثير منهم من منازلة المسلمين، وحتى أنهم كانوا يفكرون بأن المسلمين ليسوا أشخاصاً مألوفين، وكانوا يقولون بأن المسلمين قد جاؤوكم من قرب يثرب (المدينة) بهدايا يحملونها على أبلهم هي الموت)[٧٨]، وهكذا ينصر الله سبحانه نبيه ﷺ بان يجعل الرعب في قلب أعدائه، ويجعل السكينة في صفوف جيشه مع قلة العدد، وانعدام الناصر، وهذه خصيصة اختص بها ﷺ لم يحظ بها نبي قبله.

٢. جعل الأرض له ﷺ ولأمته مسجداً وطهوراً: ومما اختص به سبحانه نبيه الكريم محمد ﷺ ان يسر له ولأمته العبادة، ومن مظاهر التيسير في العبادة، ان يسر لها في صلاتها وطهورها، إذ جعل كل الأرض

(٧٨) ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥/ ٢٥٨.

لأمته مسجداً وطهوراً، فضلاً عن الأمم السابقة التي كانت لا تقبل صلاتهم إلا في كنائسهم ومحاريبهم، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ [سورة النساء: ٤٣].

وما هذه الخصوصية من الله سبحانه لنبينا محمدﷺ ولأمته من دون سائر الأنبياء والأمم، إلا ليسهل عليهم أمر الدين، ويجعل لهم بدل الماء تراباً يطهرون به أنفسهم[٧٩]، وقد أكد نبينا على خصيصة جعل التراب مسجداً وطهورا في قوله: (وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)[٨٠].

٣. احل الله تعالى لهﷺ الغنائم: ومما خص به الله تعالى نبيهﷺ من دون سائر الأنبياء والرسل هو تخصيص نسبة من الغنائم (الخمس) خالص له ولذريته، وهذا الأمر لم يكن قد امتاز به نبي قبله، قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ ﴾ [سورة الأنفال: ٤١].

وهذا الخمس تشريف للنبيﷺ ولبني هاشم، إذ إن الله سبحانه قد حرّم الزكاة عليهم تنزيهاً لهم، كان قد فرض لهم سبحانه العطاء من الخمس فقط، يقول السيد محسن الأمين (ت١٣٩٠هـ): (وحرمة الصدقة على النبي وأهل بيته تنزيه عظيم لهم من الأوساخ اما انه تنزيه من ريبة فلا، والنقصان الذي يلحقهم بحرمانهم من الزكاة نقصان مالي لا نقصان أدبي فجبر بالخمس)[٨١].

(٧٩) ظ: محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، ٢/ ٦٢.

(٨٠) المجلسي، بحار الأنوار، ١٦/ ٣٠٨، احمد بن حنبل، مسند احمد، ١/ ٣٠١، البخاري، صحيح البخاري، ١/ ٨٦.

(٨١) الشيعة بين الحقيقة والأوهام، مؤسسة الإعلامي، بيروت، ط٣، ١٩٧٧، ص ٤٢٥.

وقد ذهب جملة من المفسرين إلى القول بان الغنائم فقط غنائم الحرب[٨٢]، ومن المعلوم إن غنائم الحرب محدودة فلا يعيش الإنسان حياته في حروب وسلب وغنم ومع وقوع الحروب لا يمكن استيفاء حاجات بني هاشم مع تعدد طبقاتهم من غنائم الحروب فقط!!.

إذن الخمس تشريف وتكريم للنبيﷺ وذريته من دون سائر الأنبياء والرسل، وذلك تنزيهاً له من صدقات الناس، وتعظيماً لشأنه.

٤. جعل شرعهﷺ في معجزته: من المعلوم إن معجزات الأنبياء السابقين جميعهم منفكة ومنفصلة عن تعليمات شرعه التي جاء بها، إذ إن معاجزهم كانت لإثبات صدق رسالتهم ونبوتهم، وليست للتشريع، فلا نجد بين عصا موسىؑ وبين التوراة التي أنزلت عليه، ولا نجد علاقة بين معجزة داودؑ بتكليمه الدواب كلها، والزبور، وكذلك ما وجدنا علاقة بين إحياء الموتى، وإبراء الأكمة والأبرص، في معجزة عيسىؑ والإنجيل الذي أنزل عليه.

أما رسولنا الكريم محمدﷺ فإننا نرى إن أعظم معجزة له هو القرآن المجيد، وان شرع رسالته كلها في هذا القرآن، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾[سورة النساء: ١٠٥]، وقوله تعالى: ﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [سورة النحل: ٤٤]، فنلحظ بوضوح إن هذا القرآن المعجز هو عين التشريع، فمعجزتهﷺ منها يستمد أصل التشريع والعقائد فنجد هذه الآية في الحكم بين الناس، في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبيين جميع الدين وأصوله وفروعه، ويحتمل ان الآيتين كلتيهما معناهما واحد، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والإعراض والأموال

(٨٢) ظ: الطبري، جامع البيان، ١٠/ ٦، الرازي، مفاتيح الغيب، ١٥/ ١٣٢، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣١٣.

وسائر الحقوق وفي العقائد، وفي جميع مسائل الأحكام(٨٣).

وكان الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أول من نبه إلى هذه الحقيقة العالية فيما رواه ابن السكيت (ت٢٤٤هـ) قال ابن السكيت للإمام الرضا عليه السلام: (لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا ويده البيضاء، وآلة السحر؟. وبعث عيسى بآلة الطب؟. وبعث محمداً صلى الله عليه وآله بالكلام والخطب؟. فقال الإمام الرضا: إن الله لمّا بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجة عليهم، وأن الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات وأحتاج الناس إلى الطب، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم مثله، وبما أحيا به الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص بأذن الله، وأثبت به الحجة عليهم. وأن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام -وأظنه قال: الشعر-فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجة عليهم؛ قال: فقال ابن السكيت: تالله ما رأيت مثلك قط، فما الحجة على الخلق اليوم؟. فقال عليه السلام: العقل يعرف به الصادق على الله فيصدقه والكاذب على الله فيكذبه؛ فقال ابن السكيت: هذا والله هو الجواب)(٨٤).

فالقرآن المجيد معجزة النبي صلى الله عليه وآله مصدر للتشريع الإسلامي في كل تفاصيله العامة، والسنة موضحة لهذه الأحكام، وهذه خصيصة امتاز بها نبينا محمد صلى الله عليه وآله من دون سائر الأنبياء والرسل، إذ لم يجمعوا بين آية معجزاتهم وكتاب تشريعهم لدينهم إلا الحبيب محمد صلى الله عليه وآله.

٥. جعل الله تعالى دين محمد صلى الله عليه وآله فوق الأديان كلها: تعهد الله سبحانه لنبيه محمد صلى الله عليه وآله منذ أن كان مستضعف في

(٨٣) ظ: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تفسير الكريم الرحمان في تفسير كلام المنان، ص١٩١، ابن عاشور، التحرير والتنوير، ٤/ ٢٤٧، الطوسي، البيان في تفسير القرآن، ٦/ ٣٤٧.

(٨٤) الكليني، الكافي، ١/ ٢٤.

قومه ان يجعل دينه ظاهراً، فجعل دينه الذي ارتضى له فوق الأديان كلها، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾[٨٥] [سورة الصف: ٩].

فهذه شهـــادة من الله تعالى لهذا الدين، وهـي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة، ولقد تمت إرادة الله فظهر هذا الدين على الدين كله، ظهر في ذاته كدين، فما يثبت له دين آخر في حقيقته وفي طبيعته، فأمـــا الديانات الوثنية فليست في شيء في هـــذا المجال، وأما الديانات الكتابية فهذا الدين خاتمها، وهو الصـــورة الأخير الكاملة الشاملة منها، فهو هي، في الصورة العليـــا الصالحة إلى نهاية الزمان.

فكان هذا وعد الله تعالى فيما خص به دين حبيبة على سائر أديان الأنبياء والرسل، (ولعمري لقد فعل، فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام)[٨٦]، والله متم نوره ولو بعد حين.

الخاتمـــــة:

بعد هذه الرحلة المحمدية في ضيافة القرآن المجيد، ووفق محاور البحث، خلص الباحث في خاتمة بحثه إلى:

- ينطلق مفهوم المقامـــات في عدة اتجاهات بنـــاءً على أساس التغاير والتمايز بين الأنبياء، إلا أن مقامات النبي الخاتمﷺ انمازت بوصفها دلائل على التفاضل في كونها دلائل تغاير وتمايز.
- إن بعض مقامـــات النبي الخاتم تنحصر مصداقاً بـــهﷺ دون غيره نوعاً وكماً، كما في الخاتمية والعالمية والتكليم في السماء والاســـراء والمعراج.
- الأنبياء والرسل هم الذين اصطفاهم الله تعالى من بني البشر يحملون دعوته لعباده، وان الله فضل بعضهم على بعض بحسب خطر مهمته.

(٨٥) [سورة التوبة: ٣٣].

(٨٦) الزمخشري، الكشاف، ٤/ ٥٢٦، ظ: سيد قطب، في ظلال القرآن، ٦/ ٣٥٥٨.

- امتاز نبينا محمدﷺ بخطر رسالته وعظم شأنها، وما كان لأحد من الأنبياء والرسل ان يحل محلهﷺ فضلاً على ان يكون الحامل لها من عامة الناس.
- اتسع مقام الرحمة المحمدية لتشمل في ثناياها الدنيا والآخرة، وكذلك من اتبعه ومن لم يكن من أتباعه من الأمم الأخرى، وقد تجلت رحمته في مظاهر منها: الشفاعة، الحوض، المقام المحمود، شهادته على جميع الخلائق، كما اتضح من خلال هذا البحث.
- مثلت المعجزات المساحة الواسعة في ميدان المقامات سواء كانت معنوية كالقرآن أو مادية مثل انشقاق القمر والاسراء والمعراج، على حين تمثل الباقي بالصفات النفسانية والكمالات الذاتية في شخص النبي محمدﷺ.
- عموم رسالتهﷺ وعالميتها التي لم تقف عند حدود الجغرافية واللغة، بل شملت حتى الأجناس الأخرى من غير البشر كالجن، وهذه خصيصة لم تكن لنبي قبلهﷺ.
- ومن المقامات النبي الخاتم رفع الذكر واقترانه تعظيماً وتشريفاً مع ذكر الخالق العظيم.
- اختص نبينا محمدﷺ بمقام المناجاة الفريدة من نوعها، من دون سائر الأنبياء والرسل، إذ كانت في السماوات العُلى.
- كما اختصﷺ بمقامات لم تعط لنبي قبله، كالنصرة وقذف الرعب في قلب أعدائه، جعل الأرض مسجداً وطهوراً له ولأمته، وفرض الخمس من الغنائم، ارتباط آية الإعجاز (القرآن المجيد) مع التشريع، إذ كانت معجزته مصدر تشريعه، وكل هذه المقامات امتاز بهاﷺ. كل ذلك يوضح لنا بقدر ما الحقيقة المحمّدية في القرآن الكريم.
- توافرت بعض المقامات الاخرى في الذات المحمدية على نحو المصداق الأكمل والتحقق الأتم وإن كانت موجودة في غيره من الأنبياء

كالرأفة والرحمة.

- تفرّد القرآن الكريم بتمثيل المعجزة المعنوية في مختلف ابعادها، ولعل أبرز جوانب الاختصاص والانفراد في القرآن الكريم كونه قد جمع بين وصفه رسالة سماوية ووصفه معجزة دالة على صدق الرسالة، على حين كانت سائر النبوات السابقة تختلف رسالتها عن معجزتها، فرسالة النبي موسى عليه السلام مثلاً هي التوراة لكن معجزته هي العصا واليد البيضاء، ورسالة نبي الله عيسى عليه السلام هي الانجيل لكن معجزته إحياء الموتى وإبراء الكمه والأبرص.

قائمة المصادر:

خير ما نبدأ به: القرآن الكريم.

١. احمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، مسند احمد، دار صادر، بيروت، (دت).
٢. الآلوسي (ت١٢٧٠هـ) أبو الفضل شهاب الدين البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.
٣. البخاري (ت ٢٥٦هـ) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، صحيح البخاري، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١م.
٤. البقاعي (ت ٨٨٥هـ) بهاء الدين أبي الحسن إبراهيم، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٦م.
٥. الجرجاني الشريف (ت٨١٦هـ) علي بن محمد، التعريفات، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ٢٠٠٣م.
٦. الرازي (ت٦٠٤ هـ) فخر الدين محمد، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٩م.
٧. الزمخشري (ت٥٣٨هـ) أبي القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠١م.
٨. سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط٣٤، ٢٠٠٤م.
٩. السيوطي (ت٩١١هـ) جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، مكتبة

المعارف، الرياض، ط٢، ١٩٩٦م.
١٠. الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) محمد بن عبد الحكيم، الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.
١١. صالح أحمد الشامي، من معين الخصائص المحمدية، المكتب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م.
١٢. الصدوق (ت٣٨١هـ) أبو جعفر محمد بن علي بن بابوية القمي، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، (دت).
١٣. الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) ابو علي الفضل بن الحسن، مجمع البيان، مكتبة دار المجتبى، النجف الاشرف، ٢٠١٠م.
١٤. الطبري (ت٣١٠هـ) أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د. ت).
١٥. الطوسي (ت٤٦٠هـ)، ابو جعفر محمد، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصير ألعاملي، الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠م.
١٦. عبد الكريم آل نجف، الأبعاد العالمية في العقيدة الإسلامية، مجلة الفكر الإسلامي، السنة ٢، العدد ٨، ١٤١٥هـ.
١٧. عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦هـ)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥م.
١٨. أبو القاسم الخوئي (ت١٤١٣هـ) بن علي اكبر الموسوي قدس سره، البيان في تفسير القرآن، مطبعة العمال المركزية، بغداد ١٩٨٩م.
١٩. القاسمي (ت١٩١٤م) محمد جمال الدين، محاسن التأويل، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥م.
٢٠. ابن كثير (ت٧٧٤هـ) أبي الفداء عماد الدين، تفسير القرآن العظيم، دار صبح، بيروت، ط٤، ٢٠٠٧م.
٢١. المجلسي (ت١١١١هـ) محمد باقر، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، تحقيق: محمد تقي

اليزدي، محمد باقر البهبودي، دار إحياء التراث العربي، ط٣، ١٩٨٣م.

٢٢. محسن الاميني (ت١٣٩٢هـ)، الشيعة بين الحقيقة والأوهام، مؤسسة الإعلامي، بيروت، ط٣، ١٩٧٧.

٢٣. محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، (د. ت).

٢٤. محمد تقي المدرسي، من هدى القرآن، دار القارئ، بيروت، ط٢، ٢٠٠٨م.

٢٥. محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتاب العربي، بغداد، ٢٠٠٩م.

٢٦. محمد حسين الصغير (الدكتور)، البعد العالمي في القرآن، بحث منشور ضمن أعمال الندوة المتخصصة تحت شعار (عالمية القرآن)، كلية التربية/ جامعة الكوفة، الذكرى العاشرة لتأسيس جامعة الكوفة، ٥/ ١/ ١٩٩٨م.

٢٧. محمد حسين فضل الله قدس سره، تفسير من وحي القرآن، دار الملاك، بيروت، ط٣، ٢٠٠٧م.

٢٨. محمد رشيد رضا (ت١٣٥٤هـ)، تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (دت).

٢٩. المفيد (ت٤١٣هـ) عبد الله بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، تعليق: فضل الزنجاني، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٩٧٣م.

٣٠. ناصر مكارم الشيرازي، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥م.

٣١. الواحدي النيسابوري (ت٤٦٨هـ) أبي الحسن علي بن احمد، أسباب النزول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٦م.